العرب
الثلاثاء 2020/02/18
السنة 42 العدد 11621

القدس عاصمة ترفرف فوقها كل الأعلام

متاحف وكنائس ومكتبات غربية تختصر التاريخ الثقافي للمدينة

في القدس القديمة يحفظ التاريخ أبنية بتصاميم معمارية مختلفة ترفرف فوقها أعلام دول غربية، منها الكنيسة والمستشفى والمتحف وحتى الفندق، في إشارة إلى الانفتاح على العالم الذي تعيشه القدس العربية. لكن مع ذلك يرى بعضهم أن هذا التنوع قد يطرح بعض الأسئلة الحساسة. حول علاقة هذه المؤسسات بالمجتمع الدولي من جهة والمجتمع المحلي من جهة ثانية.

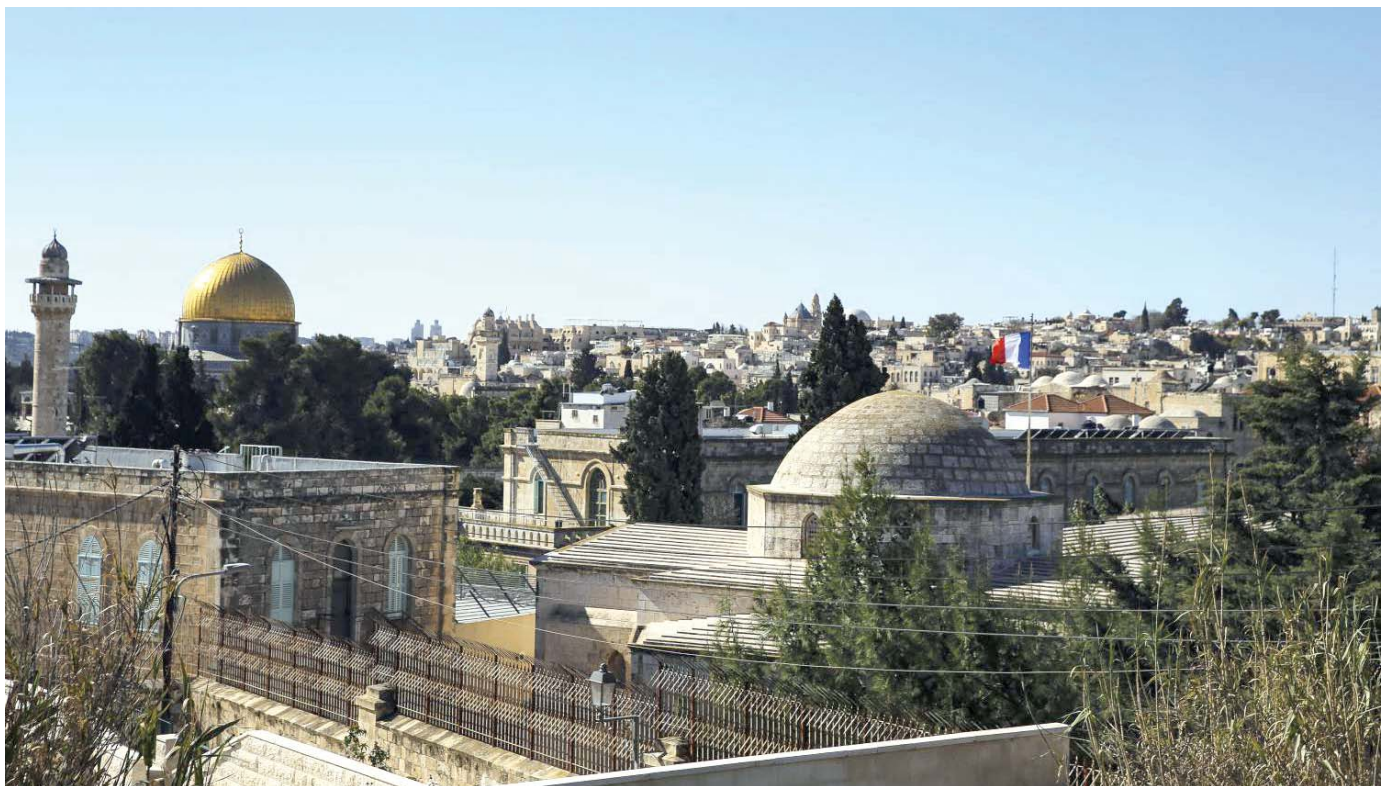

القدس مدينة متعددة الثقافات

القدس - عندما تسير في شوارع البلدة القديمة من مدينة القدس، أو محيط أسوارها العتيقة، تصادفك مبان ضخمة، ترفرف فوقها أعلام أجنبية، في غالبيتها تعود لدول أوروبية.

المباني التي تستخدم حاليا كمتاحف أو كنائس أو مكتبات أو نُزُل إقامة ومعاهد آثار، تختصر حقبا زمنية، مرت على مدينة القدس.

يقول الدكتور يوسف النتشة، الأستاذ المتخصص في آثار القدس القديمة، إن غالبية هذه المباني تعود إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أو النصف الأول من القرن العشرين.

ويضيف النتشة، وهو مدير قسم الآثار والسياحة، في دائرة الأوقاف الإسلامية بالقدس، "القدس مدينة فريدة بهذا الخصوص، فأينما تذهب سواء أكنت في داخل البلدة أو خارجها، فسوف يصادفك طراز معماري، يخبرك بأنه ينتمي إلى القدس، وأيضا ينتمي إلى نسيج معماري خاص به".

وتابع "نحن نتحدث عن العشرات من المباني، ولكن بمقياس مدينة القدس القديمة الذي هو كيلومتر مربع واحد، فإن هذا كبير جدا".

وفي وسط الحي الإسلامي في البلدة القديمة، يبرز مبنى ضخم، يرفرف عليه علم النمسا وآخر للاتحاد الأوروبي، يحمل اسم "دار الضيافة النمساوي" أو "الهوسبيس"، ويعود إلى العام 1854، حينما أقيم كمؤسسة كنسية على يد رئيس أساقفة فيينا آنذاك.

ومن الداخل، تشبه الدار القصور، فهي مبنى كبير من 4 طوابق يضم 40 غرفة، تحيط به حديقة واسعة.

في أواخر فترة الانتداب البريطاني، تم تحويله إلى مستشفى عسكري، ثم ما لبث أن استخدم كمستشفى مدني بعد انتهاء هذا الانتداب، إلى أن قامت إسرائيل بإغلاقه في أواسط الثمانينات، بحجة افتقاره لمتطلبات العمل الصحي.

وما زال الكثيرون من سكان البلدة القديمة، يذكرون حصولهم على الخدمات الصحية فيه، لكن النمسا أعادت ترميمه، وحولته إلى نُزُل إقامة مفتوح، لأي زائر إلى البلدة القديمة كأي فندق آخر في المدينة.

ليس هذا هو المبنى الوحيد في البلدة القديمة، وإنما هناك العشرات من المباني الأخرى، وبأعلام غربية أخرى، يقول النتشة "هناك أيضا مجموعة من الأملاك التي تعود لدولة روسيا، فإلى الغرب من البلدة القديمة هناك (المسكوبية) وهي مجموعة كبيرة جدا من المباني، أما في داخل البلدة القديمة فهناك كنيسة الإسكندر نيفسكي".

ويضيف "أيضا لفرنسا أملاك متعددة وكثيرة، فعلى جبل الزيتون، خارج البلدة، هناك كنيسة تعرف باسم 'آبانا' وعليها علم فرنسا باعتبارها من الأملاك الفرنسية، أما في البلدة القديمة، فإن أولى مبنى يقابلك في باب الأسباط هي مدرسة الصلاحية أو ما يطلق عليه كنيسة القديسة حنّا أو كنيسة سانت آن".

وأشار إلى أقاويل تتحدث عن أن كنيسة القديس حنّا، شهدت معجزة السيد المسيح عليه السلام، في شفاء المرضى، ومنها ما يقول "إن والدته مريم، عليها السلام، ولدت هناك".

وبحسب النتشة، فإن تاريخ هذا الموقع "يختصر تاريخ القدس"، ويكمل "فيه طبقات أثرية ومعمارية تعكس أغلب فترات تاريخ القدس، فهناك آثار تعود إلى فترة اليونان ومنها إلى فترة الرومان، حيث زارها السيد المسيح، وكانت عبارة عن بركة والناس كانت تأتي إليها، وفي أول الفترة البيزنطية تم بناء كنيسة لتخليد الشفاء العليل، الذي قام به السيد المسيح وهو أول معجزة بالقدس".

ويلفت النتشة إلى أنه "في كل هذه المباني ستجد أن أصولها قديمة، ولكنها في تراثها المعماري حديثة".

وقال، "إذا ما وصلنا إلى المدرسة العمرية في طريق المجاهدين أو المرحلة الثانية من طريق الآلام، سنجد دير الفرنسيسكان وفيه كنيسة تعود إلى إيطاليا".

وأضاف "ألمانيا أيضا جزء كبير جدا من المباني في القدس، مثل كنيسة الفادي أو كنيسة المخلص بأركانها المتعددة وآثارها وطبقاتها.

وهناك ايضا كنيسة نياحة العذراء في جبل النبي داود، وفي جبل الزيتون أيضا هناك مستشفى الأوغستا فيكتوريا أو المُطّلع".

وتابع "لبريطانيا أيضا أملاكها مثل مدرسة الآثار البريطانية وكنيسة سانت أندروز في جورة العناب".

وأشار النتشة إلى أن هذه المباني "تنم عن اهتمام شديد جدا للدول الأوروبية بمدينة القدس، باعتبارها مدينة للأديان السماوية الثلاث".

وقال "ستجد أن لكل الأمم الأوروبية، على وجه الخصوص، أملاك في القدس ما زالت قائمة حتى اليوم".

ويتضح أن الغالبية العظمى من هذه المباني، ذات التصاميم الهندسية المختلفة، هي كنائس ومتاحف ونُزُل ومكتبات ومراكز أبحاث ومواقع سياحية، يزورها السيّاح الذين ياتون مدينة القدس.

وعن بداية امتلاك الدول الأوروبية لهذه المباني، يشير النتشة إلى أن ذلك تمّ إبان القرن التاسع عشر.

ويضيف "أعادت القوى الأوروبية نفوذها بالقدس، ليس بالسيوف أو الرماح، وإنما بمؤسسات ثقافية كالمطابع والمكتبات والمدارس والمشافي ومراكز الأبحاث والكنائس".

> **لفرنسا أملاك في القدس، منها كنيسة يقال إنها كنيسة القديس حنّا التي شهدت معجزة السيد المسيح عليه السلام في شفاء المرضى**

كما ينوّه النتشة، إلى القنصليات داخل القدس، والتي تم التنافس عليها، كما تدل على ذلك الكتب والأبحاث في تلك الفترة.

وأشار النتشة إلى أن للعديد من الدور الأوروبية، مدارس في القدس، ومنها مدرسة الآثار البريطانية والمدرسة الفرنسية والمدرسة الألمانية والمدرسة الإيطالية والمدرسة الإسبانية.

وقال "كل هذا يعطينا فكرة أن القدس مدينة جامعة، وتراثها عريق جدا تتنافس عليه الدول، وأيضا يوضح حالة القدس كيف كانت في القرن التاسع عشر، وكيف هي الآن".

ويحرص القادة الأوروبيون الذين يزورون مدينة القدس، على زيارة الأماكن الواقعة بملكية بلدانهم .

وترتفع الأعلام الغربية على هذه المباني، وتطبق عليها قوانين هذه الدول، حيث تعامل مثل الممثليات الدبلوماسية.

وقال النتشة "تنطبق على هذه المباني قوانين الدولة التي تملكها وتأتي ميزانيتها من تلك الدول، فصحيح أن أهل البلد يدخلونها ويتم استقبالهم فيها للزيارة، ولكن ميزانيتها وإدارتها وترميمها وتعيين الموظفين فيها، يتم من الدول التي تمتلكها".

وأضاف، "لدى الدول التي تمتلك هذه المباني بروتكولات خاصة لإدارتها"، لافتا إلى أن هذه الأملاك هي سلاح ذو حدين.

وقال، "رغم أنها أملاك ثقافية، ومرحب بها وفيها تنوع وفيها أبعاد عالمية، ولكنها تشكل تحديات على النسيج الفلسطيني العربي الإسلامي".

واضاف، "نحن أمام معضلة مفادها: ما هي علاقة هذه المواقع والمؤسسات مع المجتمع الدولي؟ ستجد أن هذا السؤال حساس، فقد تكون بعضها عبارة عن جزر معزولة، وقد تكون على اتصال قوي بالمجتمع المحلي".

مقهى «طانطنفيل» صندوق ذاكرة مثقفي الجزائر

الجزائر - على بعد أمتار قليلة فقط من المسرح الوطني "محيي الدين بشطارزي"، يقع "طانطنفيل"، أحد أشهر المقاهي الشعبية العريقة في العاصمة الجزائر، وأحد أبرز المعالم التي تقصدها نخبة من المثقفين والفنانين من داخل البلاد وخارجها.

في الطابق الأرضي لبناء فرنسي عتيق من ثلاثة طوابق، يطل على ميدان بورسعيد في قلب العاصمة الجزائر، يرحب مقهى طانطنفيل بمرتاديه من المواطنين والوجوه الفنية والثقافية، التي تقصد المسرح الوطني، وتعرّج إلى المقهى المحاذي له، طلباً للتمتع بأجواء المقهى الشهير.

وفي زيارة للمقهى العريق، يرى الزائر أن هذا الفضاء رغم مرور 150 عاما على تشييده لم يفقد بريقه.

ويحتوي المقهى التاريخي ذو الهندسة المعمارية الفرنسية، على شرفة كبيرة تضم طاولات كثيرة والعشرات من الكراسي، أمّا القاعة التي بداخله فتزينها الأقواس وصور عدد من الشخصيات التي مرّت عليه.

وشيد مقهى طانطنفيل في العام 1870 من قبل الأخوين الفرنسيين تورتيل، وهما اللذان استوحيا اسمه من (تورتيل طانطنفيل) وهي مؤسسة صناعة الجعة التي شيداها في "مورث وموزال" وهو إقليم فرنسي يقع شمالي منطقة اللورين بفرنسا بحسب مختصين وباحثين في التاريخ.

ويعتبر طانطنفيل مكانا مفضلا عند المثقفين والفنانين والإعلاميين وبقية شرائح المجتمع سواء لتناول الغداء بمطعمه أو لارتشاف القهوة والشاي على شرفته الواسعة المفتوحة على ساحة بورسعيد التي تتواجد بها سوق سوداء لصرف العملات الأجنبية (لا تخضع لأي رقابة قانونية).

> **مشاهير مروا على المقهى منهم أم كلثوم وعبدالحليم حافظ وشارل أزنافور وجون بول سارتر وتشي غيفارا**

ويضاف مقهى طانطنفيل، إلى عدد من المقاهي العريقة والتاريخية التي تشكل ذاكرة مدينة الجزائر مثل مقهى "التلمساني" المتاخم لساحة بورسعيد والمطل على البحر المتوسط، ومقهى"سوسطارة"، و"مالاكوف" بالقصبة العتيقة، و"ميلك بار" الذي فجرت فيه المناضلة زهرة ظريف بيطاط قنبلة خلال ثورة التحرير ضد الاستعمار الفرنسي (1954–1962). ومرّ على المقهى العديد من أعمدة الفن الجزائري منهم الراحل الهاشمي قروابي، دحماني الحراشي، أعمر الزاهي، مصطفى كاتب، إضافة إلى فنانين من مصر زاروا البلاد مثل أم كلثوم، عبدالحليم حافظ، فريد الأطرش، والمغني الفرنسي شارل أزنافور، والمفكر الفرنسي جون بول سارتر، والمناضل الكوبي تشي غيفارا وغيرهم وفق شهادات.

تقول ليليا مجبر، وهي ناشطة في الحقل الثقافي، إنها تفضل أن تأتي إلى هذا المقهى، لأنه بجانب المسرح الوطني، ويتميز بالهدوء، واصفة إياه بأنه "المقهى الأهم بالنسبة لها".

من جهته يقول عزيز حمدي، ممثل مسرحي، "طانطنفيل كان ولا يزال تكملة للمسرح الوطني محيي الدين بشطارزي، ويقال أنه في زمن الفنانين المسرحيين الكبار، كانت هناك مسرحيات طويلة تدوم من ساعتين إلى أربع ساعات، حيث كان المقهى يستضيف الجمهور عند مغادرته القاعة ليستريح أو ليتم تغيير الديكور".

واعتبر المؤرخ والباحث في التراث الجزائري فوزي سعدالله، أنّ "مقهى طانطنفيل في نسخته الجزائرية اليوم مقهى ليس كغيره من المقاهي".

وقال سعدالله، إنّ "المقهى المتربع منذ قرن ونصف القرن في ساحة بورسعيد 'ساحة بْروسُوْ سابقا' في قلب مدينة الجزائر شهد النور عام 1870".

وأضاف، "المقهى ولد في سبعينيات القرن الـ19، وأسس في الأصل في منطقة مورت وموزيل شمال فرنسا على يد الأخوين تورتيل، ومنه جاء اسمه تورتيل تانتونفيل".

وأكدّ المتحدث، أنّ طانطنفيل لا يزال يشتهر بشرفته الكبيرة الأسطورية المجاورة لمسرح محيي الدين بشطارزي.

ولم يخف المتحدث أنّ سحر المقهى استمر حتى ثمانينات القرن الماضي، حيث كان لا تزال تتردد عليه النخبة الفنية في العاصمة الجزائرية؛ "الموسيقيون والمطربون والشعراء والممثلون ورجال المسرح".

من جهتها قالت الباحثة في التاريخ والآثار فايزة رياش، إنّ "مقهى طانطنفيل يكتسي رمزية كبيرة في الموروث الثقافي والتاريخي بالجزائر".

وأضافت رياش، أنّ "طانطنفيل مقهى يعدّ ملتقى النخبة من الفنانين والكتاب والصحافيين الذين يقصدون المسرح الوطني لمشاهدة العروض المسرحية، كما يعتبر فضاء لتبادل الأفكار والنقاش بينهم".

وأكدّت، أنّ "طانطنفيل ذاكرة فنية وشعبية، تحكي جزءا من تاريخ مدينة الجزائر المقاومة".

وأوضحت المتحدثة أنّ طانطنفيل إضافة إلى كونه ملتقى أهل الثقافة، كانت تحضر في مطعمه أشهى الأطباق التقليدية مثل "الطاجين، المشاوي، بوريكس (البورك)، وغيرها"، كما أن للعديد من الفنانين من مسرحيين وممثلين ومخرجين ذكريات مع طانطنفيل أحدهم هارون الكيلاني مخرج وكاتب مسرحي.

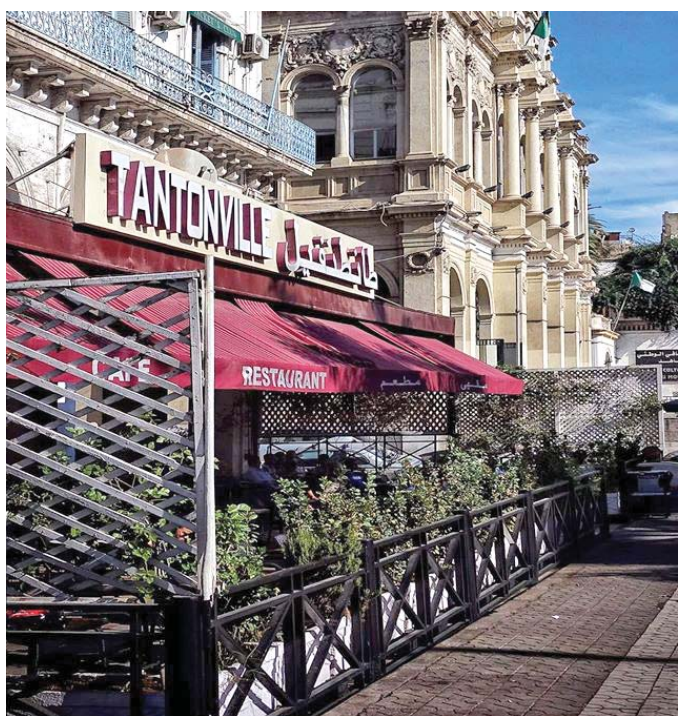

استراحة عشاق المسرح

وقال الكيلاني، وهو مخرج مسرحي "يبقى طانطنفيل هبة سحابية وعجائبية من زمن الراحلين المسرحيين وكتيبة أهل الفن الحق ويبقى القائمون عليه اليوم من أخيار الناس".